شَجَرَةُ

الأَنبِيَاءِ

- ١٢ -

يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

من الجب إلى الوزارة

منصور الرفاعى عبيد   د/ إسماعيل عبد الفتاح   رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، ٢٧٥٢٧٣٥، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٥ منصور الرفاعى عبيد.

م ن ى و يوسف عليه السلام: من الجب إلى الوزارة/ منصور الرفاعى عبيد، إسماعيل عبد الفتاح، رزق السيد هيبة؛ رسم صفوت قاسم.- القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٨.

٣٢ ص : إيض؛ ٢٤ سم. - ([سلسلة] شجرة الأنبياء؛١٢)

تدمك : ٣ـ١١٣٨ـ١٠ـ٩٧٧.

١ ـ قصص الأنبياء. أ ـ إسماعيل عبد الفتاح، مؤلف مشارك. ب- رزق السيد هيبة، مؤلف مشارك. جـ- صفوت قاسم، رسام. د- العنوان. هـ- السلسلة.

صف كمبيوتر عادل أحمد العزب

رقم الإيداع	٩٨ / ٨٢١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَقدْ عِشْنَا فِى القصَّة السَّابِقَة مَعَ نَبِىِّ الله أيوب عَليه السَّلامُ، فِى صَبْرِه الَّذِى لاَ يتحمَّلُهُ بشَرٌ، وَفِى صِدق العِبَادة وَالإخلاصِ لله؛ ونَعيشُ فِى هَذه القِصَّة مَعَ وَاحد مِنْ أنبياء الله، صَبرَ عَلَى أنواعٍ مِنَ الابْتلاء وَصدَقَ فِى الدَّعوة إلَى الله عَزَّ وجَلَّ، حَتَّى وَهُوَ فِى سِجْنه، لأَنَّ الصِّدقَ قِيمَةٌ طَيبةٌ يَتحلَّى بِهَا الرِّجَالُ، وَهُوَ جَوْهَرُ الحقَائق الَّذى يُنْجِى الإِنسَانَ فِى كُلِّ الأَحوَال وَالموَاقف، فَإِذَا امْتزَجَ الصِّدقُ بِالأَمَانَة صَارَ الإِنْسَانُ كَامِلَ الخُلُق عَفِيفَ النَّفْسِ، غَنىَّ الرُّوحِ وَالوِجْدَان.

إن مَسِيرَةَ الصِّدق والصَّادقين مَسِيرَةٌ طَوِيلَةٌ، وَفِى قِصَّتنَا هَذه نَعيشُ مَعَ يُوسُفَ عَليه السَّلامُ، الصِّدِّيق ابن الصِّدِّيق، ابْنِ الصِّدِّيق، الَّذى صَارَ مَثَلاً أعلَى فِى العِفَّة والطَّهارَة وَحُسنِ الخُلُق. فَقَدْ عَاشَ فِى بَيْت إِيمَان وَعِلم وَنبوَّة، فَهوَ يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ بنِ إِسْحَاقَ بن إِبراهِيمَ عَليهِمْ جَمِيعًا السَّلامُ. أىْ أنهُ نَبِى ابن نَبِىٍّ ابن نَبِىٍّ ابنِ أَبِى الأَنبيَاء.

وَالدُهُ يَعقوبُ عَليهِ السَّلامُ.

وَيعْقُوبُ هُوَ الَّذى بَشَّرَ اللهُ به سَيدَنَا إبرَاهِيم كَحفيد لَهُ مِنْ إِسحَاق، إِذْ رزقَ اللهُ إِسحَاقَ وَلَدَهُ يَعقُوبَ وَأَخَاهُ عِيصًا مِنْ أُمه رِفْقَةَ بِنت بَتوئيلَ أَخِى إِبرَاهِيمَ عَليهِ السَّلامُ.

وكَانَ سَيدُنَا يَعقوبُ عَليهِ السَّلامُ مَحبوبًا مِنْ أُمه، وَظَلَّتْ أُمُّهُ تَضْغطُ عَلَى وَالده حَتَّى دعَا لَهُ وَالدُهُ إسْحاقُ عَليه السَّلام ظَنًّا منْهُ أنه أَخوهُ التَّوءَمُ عِيصٌ، لأَنَّهُ الَّذى سَبقَهُ بالولاَدَة، فَخَافَتْ عَليْه أُمهُ من أَخيه عيص فَأرسلتْهُ إلَى خَاله لاَبانَ فِى مَسقَطِ رَأسِ جَدِّه إبراهيمَ عَليه السَّلامُ، فَذَهبَ يَعقُوبُ إلَى هُنَاكَ، وأَقامَ عِندَ خَاله، وأُعْجبَ بابنة خَاله رَاحِيلَ وَطلبَ منْ أَبيهَا أَنْ يُزَوِّجَه إيَّاهَا، فَاشْترطَ عَليه أَنْ يَعمَلَ عنْدَهُ سَبْعَ سَنوات مَهْرًا لَهَا، وَبعْدَ السَّنوات السَّبعِ أَدخَلَهُ خَالُهُ عَلَى ابْنتِه الكُبرَى لِيئَةَ، لأَنَّ التَّقاليدَ تَقْضِى بأنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ تتزوجَ البنتُ الكُبرَى قَبْلَ البنْت الصُّغْرى، وَعندَمَا وَجدَ الخَالُ أَنَّ يعقُوبَ يُريدُ الصُّغرَى رَاحيلَ طلَب منهُ العَملَ سَبْعَ سَنوات أُخرَى، وَقبلَ يَعقُوبُ ذَلكَ الطَّلبَ، وكَانت الشَّريعَةُ حِينَذاكَ تُجيزُ الجمْعَ بينَ الأُخْتَيْنِ فِى عِصْمة رَجُلٍ وَاحد، لأَنَّ الإنسَانيَّةَ كَانَ عَددُهَا قَليلاً فِى ذَلكَ الزَّمنِ، وَهذَا منْ رَحمة الله بِعبَاده، كَمَا تَزَوَّجَ يَعقُوبُ جَاريَةَ رَاحيلَ وَجاريَةَ ليئَةَ وَتُسميَّانَ «زلْفَا» و «بَلْهَا» وَعَاشَ يَعقوبُ عِندَ خَاله سَنوات عَديدةً فَرزَقَهُ اللهُ جَميعَ أولاده وَهُوَ هُنَاكَ، مَا عدَا أَصغرَهُمْ الَّذى يُسمَّى بنيَامين إذْ وُلدَ بالشَّامِ، وَعندَمَا أَرادَ يَعقوبُ أَنْ يَعودَ إلَى الشَّامِ عَادَ بمالٍ كَثيرٍ ومَاشيَة كَثيرة مَنحَهُ خَالُهُ إيَّاهَا نَظيرَ عَملَه لَديه أَعوامًا كَثيرَةً، وَعندَ عَودته إلَى الشَّامِ مَنحَ أَخَاهُ العيصَ بَعضَ أَموالِه فَأحبَّهُ حُبًّا شَديدًا.

وَعَاشَ سَيدُنَا يَعقُوبُ مِائةً وسَبْعًا وَأَربعينَ سَنَةً.

إِخْوَةُ يُوسُفَ

أَمَّـا إِخْوَةُ يُوسُفَ فَكَانُوا أَحـدَ عَـشرَ وَلَدًا ذَكَـرًا، هُمْ رَأُوبِينُ (بَكْرُ يَعقُـوبَ) وَشَمْـعُونُ، ولاوِى، وَيَهُـوذَا، وَيَسَاكَـرُ، وزَبُوبُونُ، وَكُلُّهمْ مِن زَوجَته لِيئَةَ بِنت خَالِه لاَبَانَ، أَمَّا يُوسُفُ وبِنيَـامِينُ فَهُمَا مِنْ زَوجَته رَاحِيلَ بِنت خَالِه لاَبَانَ أَيضًا، وَدانُ وتَفتَالِي مِنْ بَلهَا جَارِيَة رَاحِيلَ، وَمَادُو وأَشِيرُ مِنْ زَلفَا جَارِيَة لِيئَةَ.

يُوسُفُ الحَسَنُ الجَمِيلُ

أَخبَـرنَا رَسولُ اللهِ ﷺ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَعْطَى سَيِّـدَنَا يُوسُفُ عَليهِ السَّلاَمُ وَأُمَّه رَاحِيلَ شَطرَ الحسْنِ، وَهُوَ مَـا لَمْ يُعطِه اللهُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، فَكَانَ يُوسُفُ آيَةً فِى الحسْنِ والجَمَالِ.

وَقَدْ تَربَّى يُوسُفُ عَقِبَ وِلادته فِى بَيت عَمَّته، وكَانَ أَبُوهُ يُحبُّه حُبًّا شَدِيدًا، فَأَرادَ أَنْ يأخُذَهُ مِنْ عَمَّته الَّتِى تَحتضِنُهُ، فَأَحبكَت حِكَايَةً تَزعُمُ أَنَّ يُوسفَ سَـرقَ مِنها شَيْـئًا، حـتَّى تَستطِيعَ أَنْ تَحـتفِظ به عِندَهَـا، وكَانَت الشَّرِيعَـةُ تَقْضِى بِأَنَّ السَّارِقَ يَعيشُ مِلْـكًا لِلمسروق مِنه، فَتـركَهُ أَبُوهُ عِندَ عَمَّـته إِلَى أَنْ مَـاتَت، وعَادَ يُوسُفُ إِلَى أَحضَـان أَبِيه، وكَـانَ أَبُوهُ يَرعَاهُ ويُعطِيـه مِنْ حِكمَته وعِـلمه الكَثِيـرَ حَتَّى صَـارَ يُوسُفُ وهُوَ لاَ يَزَالُ فِى طُفولَته، عَالِمًا حَكِيمًا مِثلَ أَبِيه يَعقوبَ عَليه السَّلاَمُ.

رُؤيا يُوسفَ فِي طفولتِه

كَانَ يُوسُفُ صَغيرًا عندمَا رَأَى فِي مَنامه أَحـدَ عَشرَ كَوْكبًا، ومَعهمُ الشَّمسُ والقَمـرُ قَدْ خرُّوا لَهُ سَاجدينَ، وَقَـصَّ رُؤياهُ عَلَى وَالده، فَعرفَ يَعقوبُ أنهَا رُؤيَا حقٌّ، فَـقَالَ لِيُوسُفَ: يَا بُنَيَّ لاَ تَقصُصْ هَذِه الرُّؤيَا عَلَى إِخوَتِكَ.

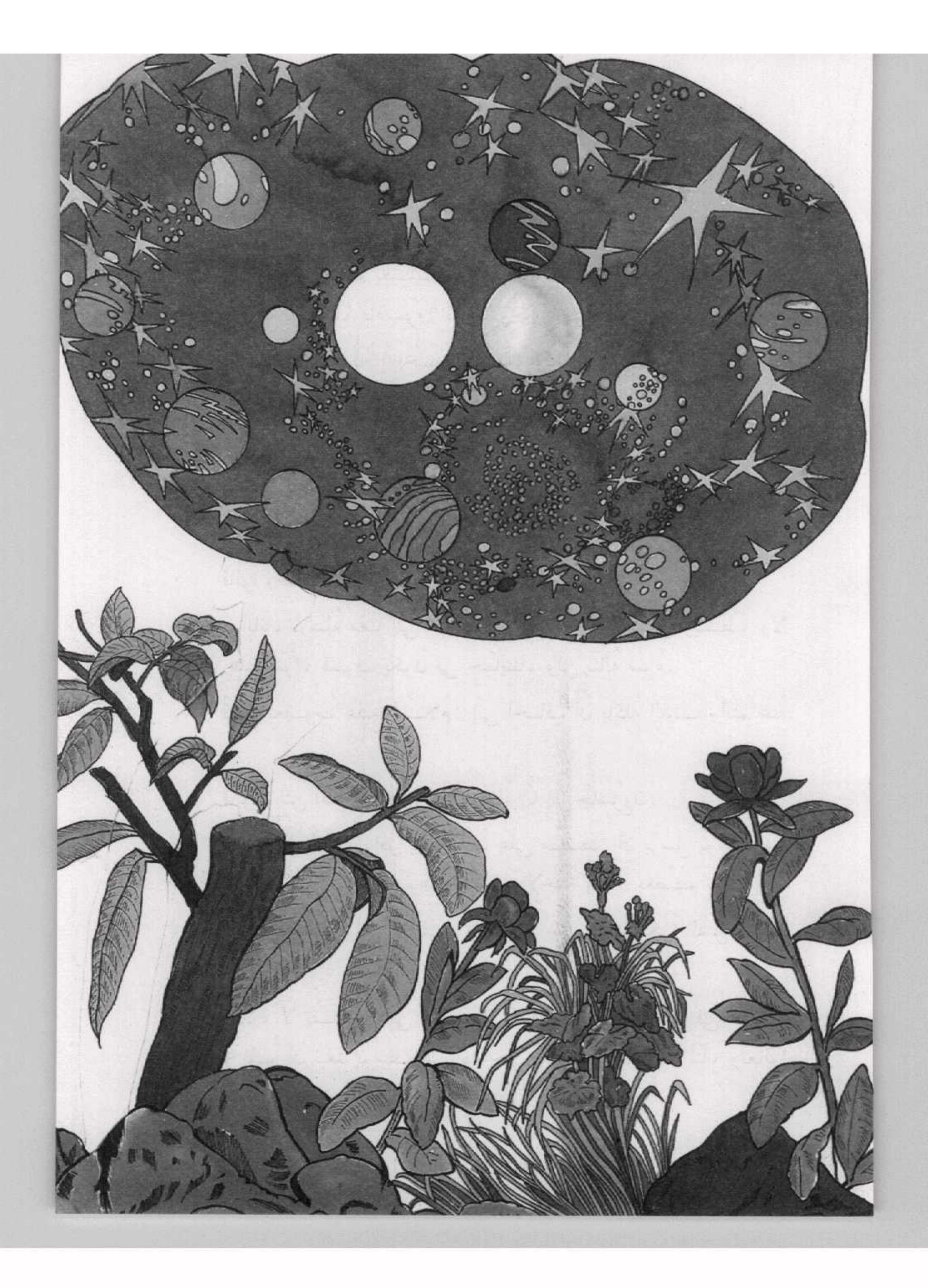
قَالَ يُوسُفُ: وَلمَاذَا يَا أَبِي؟

قَالَ يَعقُـوبُ: إنَّ إخوتَكَ عندمَا يَعلَمُونَ بهَـذه الرُّؤيَا سَيدبِّرونَ لَكَ المكَايدَ، وَسَـوفَ يُوسْوِسُ الشَّيطَانُ فِـي صُدُورِهمْ، لأَنَّ الشَّيْطَـانَ للإنسَانِ عَدوٌّ مُبِينٌ. وَإنِّي لأرْجُو مِنْ رَبِّي أَنْ يُعلِّمَكَ تَأوِيلَ الأَحَادِيث، وَأَنْ تكُونَ يَا يوسُفُ مِنَ الصَّالِحِينَ.

وَكَتمَ يُوسُـفُ سِرَّهُ، وَأَخفَى أَمْـرَ رُؤيَاهُ عَنْ إخوته، وَلكنَّهـمْ كَانُوا يَحْـقدُونَ عَلَيْـه، بِسَبَب حُسْنه وَجمَاله، وَأَيْضًـا لأنَّ أَبَاهُ يُحبُّـه ويُؤثِرُهُ عَليهِم. وَفِي ذلكَ يقُـولُ اللهُ تعَالَى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾

[يوسف: ٤ - ٦]

وَنَما يُوسُفُ وَكبرَ حَتَّى وَصلَ إِلَى سِنِّ الشَّبَابِ اليَافِعِ.



المكيدة

كَانَ إخْوةُ يُوسفَ يَعيشُونَ فى غَضب مُستمرٍّ بسَبَب تَفضيلِ أَبِيهمْ يعقوبَ لابنه يُوسُفَ، فَأضمَرُوا الشَّرَّ، وَجاءُوا إِلَى أَبِيهمْ قَائلينَ:

يَا أبانَا العَزيزُ، نَحْنُ إخـوَةُ يُوسُفَ، ونَحْنُ أَكبرُ منهُ فَاتركْهُ يَذْهَبْ مَعَنَا يتعلَّمْ منَّا مَا نَعرفُهُ، ويرتَعْ ويلعبْ، ويرفِّهْ عَنْ نَفسه فِى الخَلاءِ والهَواءِ الطَّلق وَسَوْفَ نكونُ لَهُ منَ الحَافظينَ.

وأحسَّ يعقُوبُ مَا يكمُنُ فِى صُدُورِهمْ منْ شرٍّ فقَالَ:

إنَّ يوسُفَ لاَ يزَالُ صَغيراً، وَلاَ أستطيعُ فِراقَهُ.

قَالُوا وَقدْ مزَجُوا كَلاَمَهُمْ بنبرَة حَنان:

يَا أبَانَا، أَرسلْهُ معنَا إلَى المرَاعى فِى الصَّحراء، يَسعَى وينشَطُ، ولاَ تخفْ عَليه شرّاً، فسوفَ يكونُ فِى حمَايتنَا، وَلَنْ ينَالَهُ سُوءٌ.

قَالَ يعقُوبُ عليهِ السَّلامُ: إنِّى أخافُ أَنْ يأكلَهُ الذئبُ وأَنتمْ عَنهُ غافِلُونَ.

قَالُوا: لَئِنْ أكلَهُ الذِّئبُ ونَحْنُ حَولَهُ إنَّا إذًا لخَاسِرُونَ.

وتَحتَ إلحَاحِهمْ وَافقَ يَعقُوبُ عَلَى مَضَضٍ أن يرسلَ يُوسفَ مَعَ إخْوته إلَى المرْعَى، وأثناءَ سَيرِهمْ تَفَاوضَ الإخْوةُ وسَأَلَ بَعضُهُمْ بعضًا.

كَيفَ يتخلَّصُونَ مِنْ يُوسُفَ، وَخطرَتْ عَلَى بَالِهمْ فِكرةُ القَتلِ، فقَالَ بَعضُهم:

- لاَ، لاَ تقْدمُوا عَلَى جَرِيمَة نكراءَ كَالقَتلِ، فكِّرُوا فى طَرِيقة أخرَى، المهمُّ أَنْ نُبعدَ يُوسفَ عَنْ أبيهِ حَتَّى يكونَ حُبُّهُ خَالصًا لَنَا، وتَعالَوْا



نُلْقه فِي هَذه البِئْرِ، فَرُبَّما يَبْقَى حَيًّا، وَيلتقطُهُ بَعضُ المسَافِرينَ، ويَأخُذونَهُ عَبْدًا لَهم، وبَذلك نَكُونُ قَدْ حَقَّقْنَا هدفَنَا، وأَبقَيْنَا عَلَى حَياةِ يُوسُفَ، فَلاَ نَعِيشُ بِعْدَ ذَلكَ نَادمينَ!

قَالَ قَائِلٌ مِنهُمْ: وَماذَا نَقُولُ لأَبينَا عِندَمَا يَسألُنَا عَنْ مَصيرِه؟

قَالَ أَكبرُهُمْ: نقُولُ لَهُ، لَقَدْ أَكَلَه الذِّئبُ، ولَكِي تَكونَ القِصَّةُ مَحبوكَةً وَيصدِّقَها أَبوكُم نَأْخُذُ مَعَنا قَمِيصَ يُوسفَ بعدَ أنْ نلطِّخَهُ بالدَّمِ، لِيكُونَ دَلِيلاً عَلَى مَانقُولُ.

وَبجوَارِ البئْرِ خَلَعَ الإِخْوةُ عَنْ يُوسفَ قَمِيصَهُ، وَعلَّقُوا يُوسُفَ فِي حَبلٍ، وأَسقَطُوهُ فِي البئْرِ، ولَكنَّ رَحمةَ ربِّهِ تَداركَتْهُ إِذْ تعَلَّقَ بصخْرةٍ فِي جِدارِ البِئْرِ، وَبقِيَ مُنتظِرًا مَا يأْتِي بِهِ القَدَرُ فِي ذَلِكَ الموْقِفِ العَصِيبِ.

وَفِي المسَاءِ عَادَ الإِخوةُ إِلَى أَبيهِم يحَمِلُونَ القَمِيصَ الملطَّخَ بالدَّمِ، وَيذرفُونَ الدُّمُوعَ الكَاذبةَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا أبَانَا، إنَّ يُوسُفَ قَدْ أَكَلَهُ الذِّئبُ عِندَمَا تركنَاهُ عِنْدَ متاعِنَا ورُحْنَا نتسَابَقُ فِي الصَّحرَاءِ.

وَنظَر يَعقُوبُ إِلَى القَميصِ، وتَفحَّصهُ وَشمَّ الدَّمَ الَّذِي عَليه، فَهدَاهُ حسُّه أَنهُ دَمٌ كَاذِبٌ، وليسَ دَمَ ابنِهِ يُوسُفَ، ثُمَّ إِنهُ لَمْ يَجدْ فِي القَميصِ قَطعًا أَو تمزيقًا، فعرَفَ أنَّ المكيدَةَ الَّتِي توقَّعَهَا قَدْ حَدثتْ، فقالَ غيرَ مُصدِّقٍ مَا يرَى: بَلْ سَوَّلتْ لكمْ أَنفُسُكم أَمرًا، فَصبرٌ جَميلٌ وَاللهُ المستعَانُ عَلَى مَا تَقُولُونَ وتزعُمُونَ.

النَّجاةُ

لَقدْ أَصبحَ يُوسفُ فِي مَأْزِق، وَأَيُّ مَأْزِق. طِفلٌ صَغيرٌ لاَ حولَ لَهُ وَلاَ قُوةَ، يقذفُ بِه عَشرةُ رِجالٍ أَشدَّاءَ، لاَ يقدرُ عَلى دَفعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطيعُ مُغالَبَتَهُمْ، إِلَى بئرٍ عَميقةَ مُهلكة، لاَ أَملَ فِي الخرُوجِ مِنهَا، وَقَدْ يكونُ فِيهَا منَ الحيَّاتِ وَالأَفاعِي مَا تَنْهشُهُ بأنْيابِها، وتُفرغُ فِي جَسده الوَاهِنِ سُمومَهَا. فَتقضِي عليه فِي لحظَاتٍ قَدْ لاَ تَطُولُ.

ولَكنَّ اللهَ أَرحَمُ بعباده الضُّعفَاءِ، وهوَ العَونُ الأَكْبرُ لِلمخلصينَ، يحوطُهمْ بِعنَايتِه، وَيحفظُهمْ برِعايتِه، وَصدقَ القائلُ:

وإِذَا العِنَايَةُ لاَحَظَتْكَ عُيونُهَا — نَمْ فَالمخاطِرُ كُلُّهنَّ أَمانُ

وَفِي هَذه الظُّلمات المتَراكبَة، وَالمخاطِرِ الَّتِي تَحارُ فِيهَا العُقُولُ، وَقَدْ أَحاطَتْ بالطِّفلِ البَرِيءِ، الضَّعيفِ، العَاجِزِ، الَّذِي لاَ يَستطيعُ أَنْ يَدفعَ خَطَرًا، ولاَ أَنْ يردَّ هَلاكًا، فِي هَذَا كُلِّه كانَ الإِشْعَاعُ، كَانَ الوَحْيُ مِنَ السَّماء، كَانَ اللهُ هُناكَ معَ يُوسُفَ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴿١٥﴾﴾ [يوسف]. أَيْ نَحنُ كُنَّا مَعهُ، لَمْ يكنْ وَحْدَهُ، إِنَّهُ لِي، وَأَنَا لَهُ، وَأَوْحَينَا إِلَى يُوسُفُ إِنَّكَ سَتَنْجو وَسَتُعرِّفهم بِهَذا الَّذِي فَعَلُوهُ مَعكَ، وَهُمْ لاَ يَشْعُرونَ أَنَّهمُ بِسَبَبِ فِعلَتهمْ هَذِه يَضَعُونَ دُعامةَ المستقبَلِ الَّذِي يَنْتَظِرُكَ.

كَيْفَ كَانَ شعُورُ يُوسُفُ وَهوَ يُعَانِي تَجربةَ الوَحْيِ فِي هَذِهِ السِّنِّ؟

ذَلِكَ أَمرٌ لاَ يَعلَمهُ إِلاَّ اللهُ، فَهذهِ مَقَامَاتٌ تَكونُ بَينَ اللهِ وَأَنبيائِه، هُمُ الَّذِينَ يُدرِكُونَهَا، وَلاَ يُدرِكُهَا البَشَرُ العَادِيُّونَ. وَإِنَما كُلُّ الَّذِي يُمكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ إِدرَاكُنَا أَنَّ يُوسُفَ قَد عَرفَ وَاطْمأنَّ حِينَ أَوْحَى اللهُ إِلَيهِ، وَرَبطَ عَلَى قَلبِه، فَلَمْ يَفزَعْ، وَلَمْ يَجزَعْ لِمَا هُوَ فِيهِ.

وَصدَقَ الْقَائِلُ:

ضَاقَتْ، فَلمَّا استَحكمَتْ حلقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لاَ تُفْرجُ

وَهكذَا جَاءَ الفَرَجُ يَايُوسُفُ، فِي وَسَطِ ذَلِكَ الظَّلامِ الكَثِيف، فِي لَحظَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَو نَهارٍ، فِي بِئرٍ عَمِيقَةِ الأَغوارِ، فِي ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوقَ بَعْضٍ، يُرسِلُ اللهُ خُيوطَ النُّورِ، لَيسَ نُورَ شَمْسٍ وَلاَقَمرٍ، وَلكِنْ نُورُ الرُّوحِ الَّتِي عَاشَتْ مَعَ اللهِ، فَأَضَاءَ اللهُ لَهَا الحيَاةَ، نُورُ الْفرجِ الَّذِي يَأْتِي مِنْ عندِ اللهِ، فَيزِيلُ هُمومَ المهْمومِينَ، وَيُفَرِّجُ كَرْبَ المكْروبِينَ، وَيُذهِبُ الحزْنَ عَنِ المحزُونِينَ.

ظَلَّ يوسفُ فِي البِئْرِ يَوْمًا كَامِلاً حَتَّى جَاءتْ إِحدَى القَوافِلِ الَّتِي تَسيرُ فِي الصَّحراءِ مُتوجِّهَةً مِنَ الشَّامِ إِلَى مِصرَ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى البِئرِ لِيأخُذُوا مِنْهَا بَعضَ الماءِ، فَأَدلَى وَاحِدٌ مِنهم دَلوَهُ، فَتَعلَّقَ بِهِ يُوسُفُ،



ففرِحَ بهِ الـرَّجُلُ فَرحًا عَظيمًا وقَـالَ: يَا لَهَا مِنْ بُشرَى طَيـبَةٍ، هَذَا غُلاَمٌ جَميلٌ.

لَقدْ تَعلَّقَ يُوسُفُ بِحبْلِ الدَّلوِ، فَـخرجَ مَعَهُ إِلَى سَطْحِ الأَرْضِ، إِلَى نُورِ الحَيـاة، فَأخَذَتِ الرَّجلَ الدَّهـشَةُ، وَصَاحَ صَـيْحتَـهُ، ﴿يَابُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ﴾ كَـيْفَ أَتَى إِلَى هَذا المكَانِ؟ وَمَنِ الَّذى أَلقَاهُ فِى تِلكَ البِئـرِ؟ أَسئلةٌ لاَ يَستَطِيعُ يُوسُفُ أَنْ يُقَدِّمَ عَنْهَا جَـوابًا، وَلوا استَطاعَ لقَالَ: أَنا فُلانُ ابنُ فُلانٍ، ولَتوَسَّلَ إِليهِم أَنْ يُعيدُوهُ إِلَى أَهلِـهِ. وَلكنَّهُ لَم يَقُلْ شَيئًا، فَأَخذَتْهُ القَافلهُ وأَخفَتْـهُ، وَجعلَتْهُ بِضاعَةً يُمكنُ أَنْ تَبيـعَهُ؛ لأَنَّهُ هكَذَا كَانَ يَحدُثُ فِى ذَلكَ الزَّمانِ، إِذَا وَجَدَ إِنسَانٌ إِنسَانًا آخرَ مُنفرِدًا يَختَطفُهُ فيصِيرُ لَهُ عَبدًا يُبَاعُ وَيُشْتَرى، وَهكَذَا فعلَتِ القَافِلَةُ.

وَصَارَ يُوسفُ عَـبْدًا، أَخَـذَهُ رِجَالُ القَافلة وَاتَّجـهُوا بِهِ إِلَى مِـصْرَ، وَهُنَاكَ تَخَلَّصُوا مِنْهُ، فَبَاعُوهُ بِثَمنٍ قَلِيلٍ، لأنهُ لاَ يزَالُ صَغِيرًا، لاَ نَفعَ فِيهِ لَهمْ، بَلْ سَيَكُونُ عِبْئًا عَلَيهِمْ، فِي الإِنفَاقِ عَلَيْهِ مِنْ مَأكلٍ ومَلبَسٍ إِلَى آخِرِ مَا يَحتَاجُهُ الإِنسانُ فِي المعِيشَةِ.

اشْتَرَى يُوسُفَ وَاحِدٌ مِنْ وُجهَاءِ مِصْرَ الأَغنياءِ، هُوَ العَزِيزُ، أَيْ كَبِيرُ الوُزرَاءِ، وَكَانَتْ عَـاصِمَـةُ مِصـرَ آنذَاكَ، هِيَ صَا الحجَـرْ فِي زَمنِ مُلوكِ العَمَـالقةِ، وأُعْجِبَ عَزِيزُ مِـصرَ بجمَالِ يُوسفَ الطِّفلِ وَحُـسْنِهِ، وَحسْنِ أَخلاقِهِ، فَـذهَبَ بِهِ إِلَى زَوجَتِهِ وَقَالَ لَهَا: هَذَا طِفلٌ جَـمِيلٌ، اهتَمِّي بِهِ، وأَكرِمِـيهِ فلَعلَّهُ يَنفعُنَا أَو نَتَـبنَّاهُ فَيصِـيرَ لَنا وَلَدًا، وَأَحَبَّ العَزِيزُ وَزوجَـتُهُ يُوسُفَ حُبًّا شَدِيدًا، وَأَحَاطُوهُ بِالرِّعايـةِ والحنَانِ، حَتَّى كَبرَ وَأَصـبحَ شَابًّا يُمكنُ أَنْ يَتحمَّلَ المسئولِيَّةَ، فَجعـلُوهُ رئيسًا عَلَى الخدَمِ وَالعبيدِ، وَصَاحِبَ الأَمرِ والنَّهيِ، صَـاحِبَ التَّصرُّفِ فِي شُـئونِ البَيْـتِ، وَتَوَلاَّهُ رَبُّهُ بِالرِّعَايةِ والهِدَايةِ، وَعلَّمَهُ مِن لَدنُه عِلْمًا غَزِيرا.





الإبتلاءُ مرةً ثانية

كَانَ جَمَالُ يُوسفَ وَحُسْنُهُ ابتلاءً لَه منَ الله عزَّ وجلَّ، كَمَا كَانَ خيْرًا فى الوقْت ذَاته، فَمرةً ثَانيةً يقعُ يُوسفُ فى الابتلاء، إذْ أحبَّتْه سيدتُهُ امرأةُ العزيز، فَقَدْ رأت فيه كمَالَ الحسْنِ، وتمامَ الخُلُق، وكَانَ حُبُّهَا لَهُ حُبَّ المرأة للرَّجلِ، رغمَ أنهُ بالنِّسبة لَهَا كَانَ بمنزلَة العبد، ولكنَّه بصفته رئيسًا للخدَم كَانَ يتجوَّلُ في البَيْت كَمَا يشاءُ، ويجلسُ معَ سيدته فى كثير منَ الأحيَان، فَأخذَت تُداعبُه وهو يعرضُ عنْهَا، لأنهُ مؤمنٌ باللّه، ممتثلٌ لأوامره ونَواهيه، مُلتزمٌ بالطَّهارة والعفَّة، فهوَ سَليلُ بيت نُبوة، وفى الوقْت نَفسه يحترمُ سيِّدَه الَّذى أكرمَه ومكَّنَهُ فى بيْته، ووثقَ به ثقةً كاملةً، وهذَا هوَ الصِّدقُ معَ النَّفسِ والصِّدْقُ معَ الآخرينَ.

ويومًا اشْتدَّ الحبُّ والهُيامُ بامرَأة العزيز، فَانتهزَتْ فُرصةَ خُروج زَوجهَا، وأغلقَت الأبوابَ عليهَا وعلَى يُوسُفَ، وراحَتْ تَذكرُ لَهُ محاسنه ومحاسنَهَا تُشوِّقُهُ بذلكَ إلَى الوُقُوعِ فِى الخَطيئَة وفعلِ الفَاحشة معَهَا. ولَكنَّ يُوسفُ جرَى نَاحيةَ البَاب وهو يقولُ لهَا: إنَّ سيِّدى قَدْ أحسنَ مثْوايَ، فلاَ يَليقُ بى أنْ أخونَهُ وأُدنِّسَ عرضَهُ، ومعَاذَ اللَّهِ أنْ أكونَ من الخائنينَ.

جَرت امرأةُ العزيزِ وراءَ يُوسُفَ وحاولتْ أنْ تجذبَهُ إليهَا فَجذبَت ثَوبهُ حتَّى تمزَّقَ منَ الخَلْف، ولَكنَّهُ اسْتطاعَ أنْ يُفلتَ منْهَا ويُسرعَ إلَى البَاب وحَاولَ فَتحَهُ، وفَجأةً انفتحَ البَابُ، ووجدَ يوسفُ عزيزَ مصرَ أمامَهُ وَجْهًا لوجْه، ومَعهُ ابنُ عمِّ زوجته، أيْ زَوجة العزيز الَّتى تُسمَّى زُليخَا، وكَانَ كَيدُ النِّساء عَظيمًا، فَأسرعَتْ الزَّوجَةُ إلَى زوجهَا بَاكيةً، لتشفيَ غَليلَ صَدرهَا وحَنقها علَى يوسُفَ، ولكيْ تُبرِّئَ نفسَهَا منْ ذَلكَ الموقف المريب قَالَتْ: إنَّهُ أرادَ بيَ السُّوءَ، ولاَ بُدَّ أنْ ينالَ جزاءَهُ، فَيسجنَ أوْ يُعذَّبَ عَذابًا أليمًا، لَقدْ رَاودنَى عَنْ نفسى وتلكَ جريمةٌ لابدَّ أن ينال عليْهَا عِقَابَ الخَائنينَ.

وَجدَ يُوسف نَفْسهُ فِى موقف صَعب ومأزق يعْسُرُ الخُروجُ منه، ولكنَّهُ كَانَ رَابطَ الجَأْش ثَابتَ القَلْبِ، يَعلمُ أنَّ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالَى قَادرٌ عَلَى إخراجه منْ ذَلكَ الضّيق، وجَزائه جَزاءَ الصَّادقينَ.. فقَالَ:

هِيَ رَاودتْني عَنْ نَفْسِي، وقَدْ أَبيتُ ذَلكَ، لأَنِّي أَعلمُ أَنَّ اللهَ لاَيُحبُّ الخَائنينَ.

وَالتفتَ العزيزُ إلَى ابن عمِّ زَوجَته، يَسأَلُه عَنْ كَيفيَّة الوُصول إلَى الحقيقة، فَهاهَو ذَا يُوسفُ يقُولُ شَيئًا، والزَّوجَةُ تقُولُ شيئًا آخرَ، وَهوَ لَمْ يَعهدْ عَلَى يُوسفَ كَذبًا، ولَمْ يُجرِّبْ عَلَى زَوجَته خيانةً.

قَال ابنُ العَمِّ، وكَانَ حكيمًا خَبيراً بكَثيرٍ منَ الأُمور:

انظُروا إلَى قَميص يوسُفَ، إنْ كَانَ قَدْ تمزَّقَ من الأَمَام، فَالزَّوجَةُ صَادقَةٌ وَهو كَاذبٌ، وإنْ كَانَ القَميصُ قَد تمزَّقَ منَ الخلْف، فَالزَّوجَةُ كَاذبةٌ وَهُوَ صَادق.

وَظهرَ الحقُّ والبُرهانُ المبينُ عندَمَا رَأَى أَنَّ قميصَ يُوسُفَ قَد تمزَّقَ منَ الخلف بسبب جَذب المرْأة لَهُ وَهو يَجرى أَمَامَهَا، وَرَاحَ الزَّوجُ يَلُوم زَوجَتَهُ، وأمرَ يُوسفَ بكتْمان الخبر، وأَمرَ زوجَتَهُ بالاسْتغفَار من ذنبهَا، لخطئهَا فِي حَقِّه كزَوْج، وحَقِّ يُوسفَ كإنسَانٍ أَمينٍ.

الكَيدُ المتواصِل

كَتمَ يُوسُفُ الخَبرَ، ولَمْ يتحدَّثْ به لإنسَان، ورَغم ذَلكَ انْتشرَ فِى المدينَة، وخُصوصًا بينَ نساء الطَّبَقَة الرَّاقية، وأَصبح أمرُ يُوسُفَ وامْرأة العزيز حَديثَ النَّاس، فَكانَ النِّسوةُ يقلْنَ:

لقد امْتلأَ قَلبُ زُليخَا بحبِّ يُوسفَ، حَتَّى غلَبَ عَلَى عقلهَا، يَالَهَا منَ امرأة بَلهاء، كَيفَ تُحبُّ أَحدَ عبيدهَا؟

ووَصلتْ هَذه الأَحَاديثُ إلَى سَمع امْرأة العَزيزِ، ولاَمَهَا بَعضُ

صَديقَـاتِهَا عَلَى ذَلِكَ، فكَيْفَ تَعشَقُ عَـبْدًا مِنْ عَبِيـدِهَا، وتُبدِى لَهُ ذلكَ الحبَّ الذِى لَم يسـمَـعْنَ عنهُ مِنْ قَـبلُ فِى أىِّ بيـتٍ مِنْ بُيُـوتِ الأكَـابِرِ والعُظَمَاءِ، إنَّ هَذَا لهوَ الضَّلاَلُ المُبينُ.

وأَرادَتْ أنْ تكشفَ لَهنَّ عَنْ سِـرِّ هُيَامِـهَـا بيوسُفَ، فَـدعتْـهُنَّ إلَى قَصرِهَا، وقَدمَتْ لَهنَّ فَاكِهَـةً، وطعَامًا لاَ يؤكَلُ إلاَّ بالتَّقْطِيعِ بالسَّكاكِين، وقدمَتْ لـكلِّ وَاحدَةٍ منهُنَّ سكِّينًا، ثُمَّ أمَـرَتْ يُوسفَ بالدَخول علَـيهِنَّ، فَرأَينَ إنسَانًا كالقَمرِ لَيلةَ اكتْمالِه جمَالاً وحُسْنًا، فَانبهرْنَ بهَذَا الجَمَالِ الَذى لَم يَرَيْنَهُ مِنْ قَـبلُ، ومنْ فَـرطِ دَهشتِـهنَّ، لمْ يدرينَ مَـا يفعلْنَ فَـقطَّعْنَ أيديَهنَّ بالسَّكاكِين بَدلاً مِنْ تَقـطِيعِ الفَاكِـهَةِ، وَهُنَّ لاَ يَشعُـرْنَ بذلكَ، إذ انْشَغلْنَ انْشغَالاً كامِلاً بِمَـا يَرَيْنَهُ أَمَامَهُنَّ مِنْ جَمالِ يُوسُفَ وَحُسْنِه، وَقُلْنَ بِانبهَارٍ:

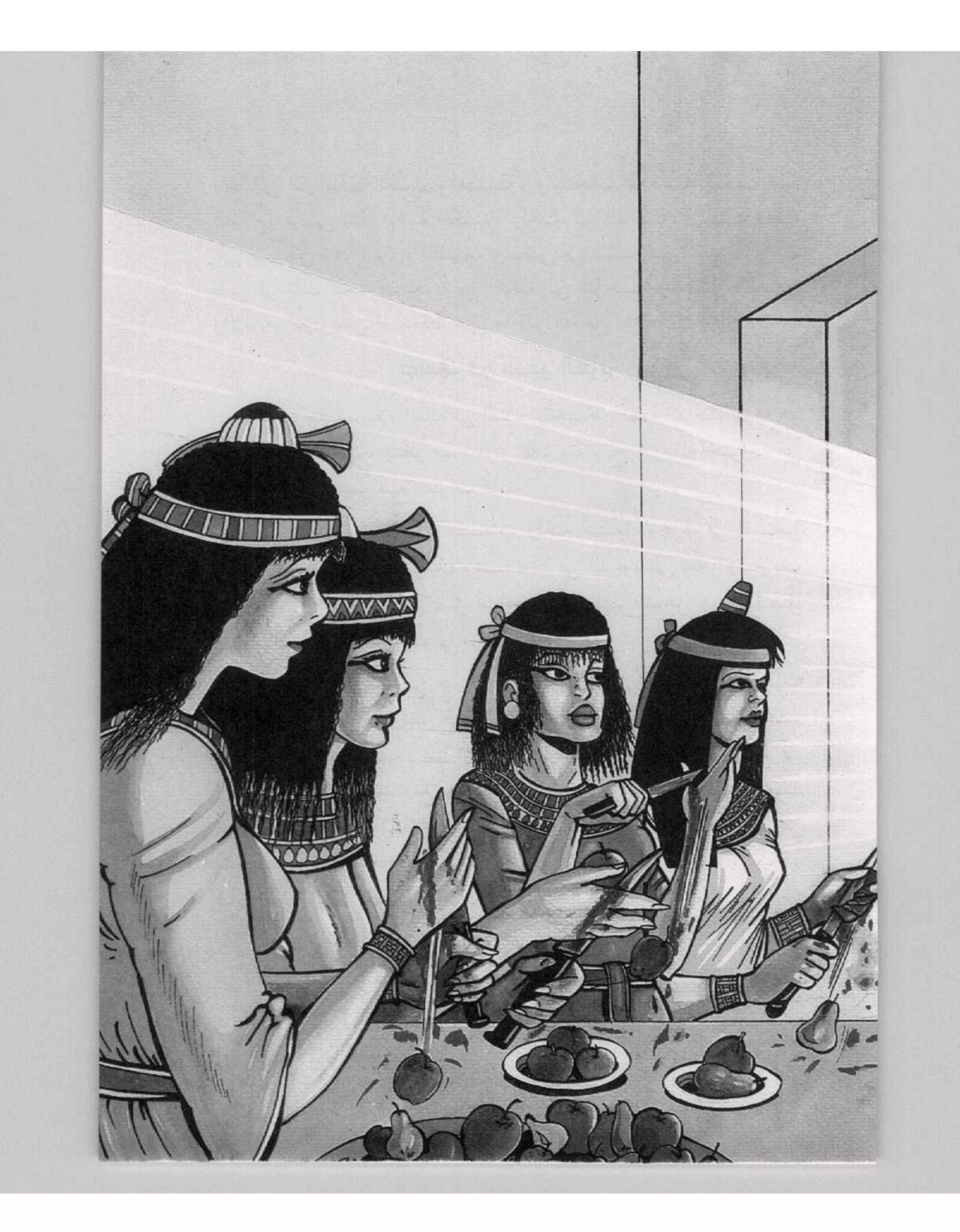
لاَ يمكنُ أن يَكونَ هَذَا الإنسَانُ بَشراً، مَـا هوَ إلاَّ مَلاَكٌ قَد هَبطَ مِنَ السَّماءِ، تَبَارَكَ الخلاَّقُ العَظِيمُ.

فَرِحت امْرأةُ العزيزِ بالدَّهشةِ الَّتى استَولتْ عَلَى هؤلاءِ النِّسوةِ وَقالتْ فِى صرَاحة وجُرأةٍ:

ذَلكنَّ هُو الإنسَانُ الَّذى لُمـتُنَّنى فِيه، ولَقدْ رَاودتُهُ عَنْ نفـسه فَأَبَى، ورَفَضَ أنْ أصلَ إليـه، أَو أَرْوِىَ عَطَشِى مِنْ ذَلكَ الحُسنِ البَـاهِرِ، وَلكنْ لابدَّ أَنْ أُجْبِرَهُ عَلَى أَنْ يفعلَ مَا أريدُ، وَإلاَّ فَـسَوْفَ يُسجَنُ حَتَّى يَأْتِىَ إلَىَّ رَاكِعًا يَطلُبُ العفوَ وَالغُفرَانَ.

ولاَ يزَالُ الابتلاءُ مَـوصُولاً، فَقَـدَ مَلأَ الخبَـرُ كُلَّ البيُـوتِ، وَالعزيزُ وزوجَةُ العزيزِ يُرِيدَانِ أنْ يَنسَى النَّاسُ ذَلكَ، فَماذَا يفعَلاَن؟

أَشارت امْـرأَةُ العزيزِ عَلَى زوجِـهَا بأَنْ يَسْجُنَ يُوسفَ، حَـتَّى يَنسَى النَّاسُ تلكَ الحكَايَةَ، وفرِحَ يُوسفُ بـالسِّجنِ وفضَّلهُ عَلَى مُمارسَةِ الخَطِيئةِ



ولجأ إلى الله يطلب العون والعصمة، واستجاب الله دعاء يوسف عليه السلام، فأنسى نساء المدينة حكايته، وأنجاه من الفاحشة، ولكنهم دفعوه إلى السجن وهو البرىء المظلوم، وقضى فى سجنه عدة سنوات، ولم ينس فى تلك المحنة أن يكون من الدعاة إلى التوحيد والفضيلة والصدق والأمانة، دون يأس أو سخط على ما قدر الله من ابتلاء.

يوسف في سجن العزيز

مر يوسف بابتلاء إلقائه فى البئر، ونجا من تهمة الفاحشة، وها هو ذا فى ابتلاء ثالث، ينتظر فيه عون الله، وتفريج كربه، وإخراجه من السجن الذى استمر سبع سنوات كاملة.

لم ييأس يوسف عليه السلام، ولكنه استغل وجوده فى السجن وبعده عن مسئوليات سيده وسيدته - فى الدعوة إلى الله، وتعريف المسجونين معه أنه نبى من نسل أنبياء، وأن شغلهم الشاغل هو أن تتصل قلوب البشر بمحبة الله فيكونوا من المفلحين.

ودخل معه السجن فتيان، الأول هو رئيس الخبازين عند ملك مصر، أما الثانى فهو رئيس السقاة، وقد سجنهما الملك فى وقت واحد، وفى أثناء سجن يوسف، ظنا منه أنهما يأتمران على أن يدسا له السم فى الطعام ليقتلاه، وعاشا مع يوسف فى السجن وأظهر لهما من الكرامات ما كان مثار عجب لهما، إذ كان أى طعام يأتيهما من خارج السجن ينبئهما به يوسف قبل أن يجىء، ويحدد لهما أصناف الطعام وكمياته، فيأتى الطعام كما أخبرهما يوسف تماما.

وذات يوم قال له صاحب شراب الملك: لقد رأيت الليلة فى المنام أنى أعصر خمرا فى كأس الملك. وقال له رئيس الخبازين: وأيضا أنا رأيت أنى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه، فما تفسير هذين المنامين، يا أيها الصديق؟

وَانتهزَ يُوسفُ الفُرصَةَ السَّانحةَ، ودَعاهُمَا إلَى تَوحيد الله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ فسر لهـمَا الرُّؤيَا، فَقَالَ للخبَّاز: إنَّكَ سَتُصلَبُ، وتَموتُ وتَأكُلُ الطَّيرُ منْ رَأسكَ، وقَـالَ للسَّاقى: إنَّكَ سَتـخرُجُ منَ السِّـجْن وتَعُودُ سَـاقيًـا للملك، فَإذَا حَـدثَ ذلكَ فاذْكرنى عنـدَهُ وَأخبْرهُ أنَّ فى السِّـجْن مَظلُومًا يُريدُ إعَادةَ التَّحقيق فى أمره.

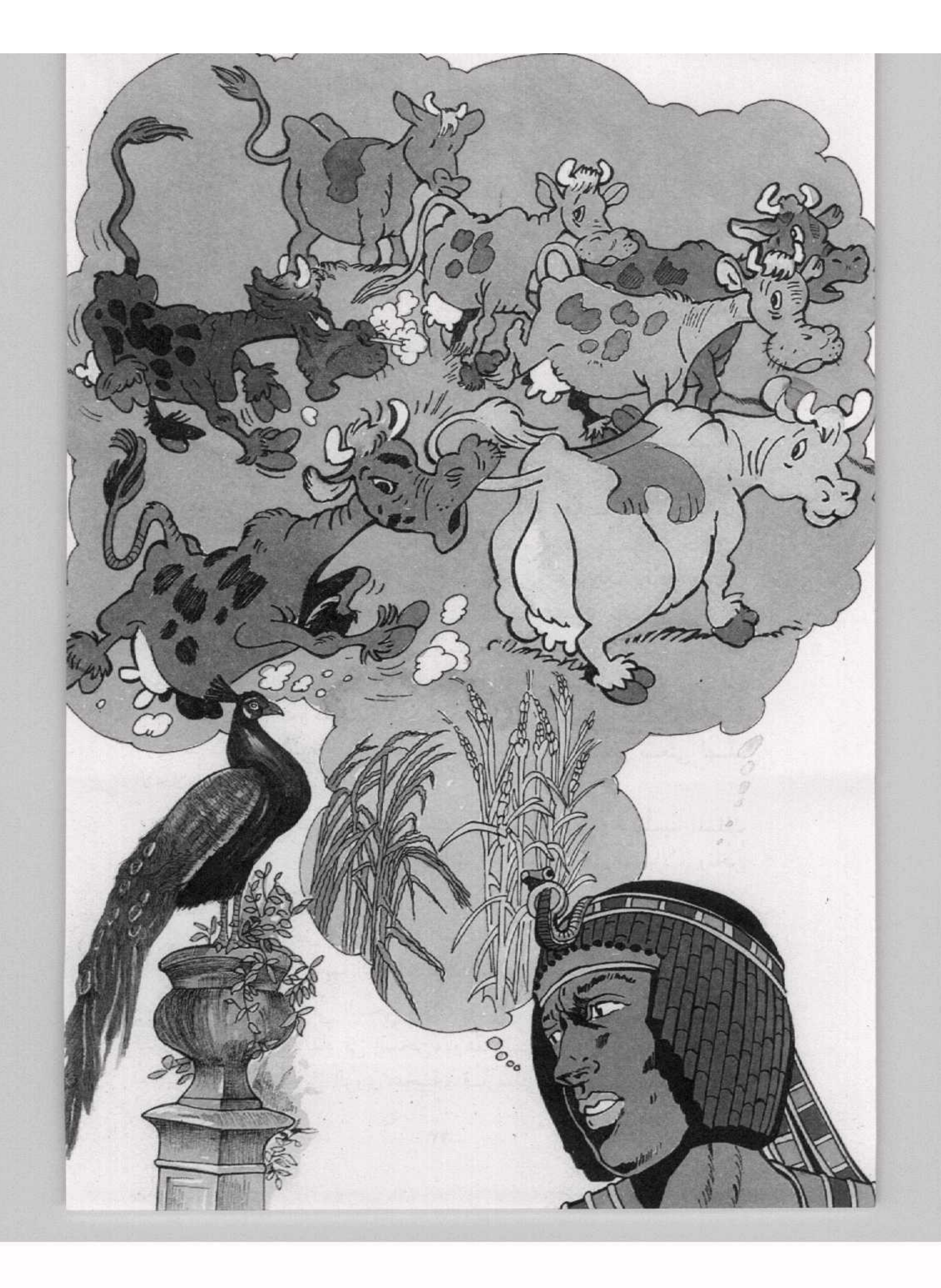
يُوسفُ عندَ الملك

خَرَجَ الفَتيان منَ السِّجن، ولَكنَّ الفتَى السَّاقى نَسىَ أمرَ يُوسُفَ فَلمْ يَذكُرْهُ للملك، فَبَقىَ يُوسُفُ فى السِّجن عدَّةَ سَنوات، بَلغتْ سَبعًا، ورأى الملكُ هوَ الآخرُ مَنَامًـا فَزعَ منْهُ واهتزَّتْ أعـصَابُهُ، فَجـمعَ حَاشيتَـهُ وقَالَ لَهمْ: لَقدْ رأيتُ فى المنَام شيئًا عجيبًـا، رأيْتُ سَبعَ بَقرات سمَان جَميلاَت يَخرُجنَ منَ النَّهر، ثُمَّ يَـرعَينَ فى روْضة خَضراء جَـميلة، ولَكنْ مَا لبثْ أنْ خرَجَ منَ النَّهـر سَبعُ بقـرَات عجَاف كَـريهَة المنْظر، نَحـيفـة الجسْم، يتقدَّمن فـيَأكلنَ السَّبعَ الحسَان، ثُمَّ اسْـتيقظتُ فَزعًا، وعندَمَـا اسْتسلَمْتُ للنَّوم مَرةً ثانيةً رأيتُ سَبعَ سَنَابلَ خُضر جَميلة لَهنَّ سَاقٌ واحدَةٌ، وخَلفهُنَّ سَبعُ سَنابلَ يَابسَات، لَفحتْهنَّ الرِّيـحُ وجَاءَ عَلَى السَّنابل الخَضر، فَأكلَهَا، وإنِّى لمنزَعجٌ منْ هَـذه الرُّؤَى، فَـهل منْكمْ منْ يدلُّنى عَـلى مَـعنَى لهـذه الأحلام المزعجَة؟

فَقالَ رجَالُ الحَاشية، جَهْـلاً منهمْ بتفْسير الأحلام، وتطْمينًا للملك فى الوقْت نَفسه: إنهَا أيُّهَا الملكُ أضغَاثُ أحلاَم، فَلا تُلْق لَهَا بَالاً، ونَحْنُ لاَ نعرفُ تَأويلَ الأحْلام.

وهنَا تذكَّر رئيسُ السُّقاة أيَّامَ السِّجن، وتذكَّر يُوسفَ الَّذى فَـسَّرَ لَهُ مَنامهُ وجَاءَ التَّفسيرُ حَسبَ الوَاقع. فَقالَ السَّاقى للملك:

أيُّها الملكُ، إنَّ فى السِّجن غُلامًا عـبرَانيًّا، اسمُهُ يُوسفُ، كَانتْ لَهُ قصَّةٌ مع العـزيز، فألقَاهُ فى السِّجن، وهَذَا الفَتَى العـبرانىُّ ذُو قُدرة عَلى تَفسيـر الأحلام وتَأويل الرُّؤى عَجيبَة، فَـأرسلنى إلَى السِّجن لأجيءَ لَكَ



بتفسير واضح لهذه الرؤى، ووافق الملكُ وأذن لساقيه أنْ يذهب إلى السِّجن لسؤال يوسفَ عَنْ تلكَ الأحلام. قَالَ لَهُ:

يَا يُوسُفُ، يَا أيُّها الصِّدِّيق، لَقدْ عبرّت لى الرُّؤيا من قَبلُ وصَدقْتَ في تَعبيركَ، وكَانَ مَا قُلتَهُ صَحيحًا، والآنَ أخْبِرْنا بتأويل تَلكَ الرؤيا.

لَقدْ رأى الملكُ حُلمًا أزعجَهُ إذْ رأى سَبع بقَرات سمان يَأكُلهنَّ سَبْعٌ عجَافٌ، وسبعَ سُنبلات خُضرٍ وأُخرَ يابسَات، وهو في انتظَار عَودتى إليه بتفسير لحُلمه هذَا.

قَالَ يوسفُ: إنَّها ليستْ أضغاثَ أحلام كَمَا زعَمُوا للملك، ولَكنْ تأويلُ ذَلكَ أنَّ مصرَ سيأتى عليْهَا سَبعُ سنوات خصبة تَجودُ الأرض بأحسن الغلاَّت، ثُمَّ تأتى بعدَهَا سَبْعُ سنوات جدّباءَ تقضى علَى المخزُون مِنَ السِّلع والحبُوب، وعندَ ذلكَ يجبُ أنْ يُحَافظُوا علَى ما تُنتجهُ لهُمُ الأرضُ فيخزنُوا مَا يَتبقَّى لديْهم فى سَنوات الخَصْب لينفعَهُم فى سَنوات الجدْب والقَحط الَّتى ستأتى بَعْدَ سنَوات الرَّخاء.

وَعادَ السَّاقى إلَى الملك يُخبرُهُ بتفسير لحُلمه يَصدِّقُهُ العَقلُ ويتوقَّعُ حُدوثَه. فقَالَ المَلكُ: ائتونى بذلكَ الغلامِ العبرانِّى الَّذى فسَّرَ لكُمْ منامى، ولَكنَّ يوسف رفَضَ الخروجَ منَ السِّجن قَبلَ أنْ يَحصُلَ علَى البراءة الكَاملَة، فقَالَ لَهم: ارجعوا إلَى الملك، وَاسألُوا أولاً عَنِ النِّساء اللاتى قَطَّعنَ أيديَهُنَّ، فَأحضرَ المَلكُ النِّسَاءَ، وسَألَهُنَّ عَنْ يوسُفَ فَقُلنَ: حَاشَ لله، ما عَلمْنَا علَى يُوسُفَ سُوءًا. أمَّا زَوجَةُ العزيز فإنَّ زوجَهَا كَانَ قَدْ مَاتَ، ولمَّا رأت النِّساءَ يَشهَدْنَ ببراءة يُوسُفَ، قَالتْ هىَ الأُخرَى:

الآنَ ظَهرَ الحقُّ، ووَضحَ الأمْرُ، أنَا رَاودْتُ يُوسفَ عَن نَفسه وإنهُ لصَادقٌ، وكُنَّا نَحْنُ لَهُ منَ الظَّالمين.

وَهكَذا، خَرجَ يُوسفُ منَ السِّجنْ، مَرفوعَ الرَّأس عَزيزًا، وقَد اتَّضحتْ بَراءَتُهُ، وعَلمَ الملكُ أنهُ لَم يكنْ مَسجونًا بسبَب جريمَة يَستحقُ لَها العقَابَ، وإنما هُو كَيدُ النِّساء، وكَيدُ العَزيز وامرأته، فقَالَ المَلكُ لحاشيَته:

ائتونى به ليعمل معى، فإنَّ الصَّادقين اليومَ قلَّة، وهذا واحدٌ من الصَّادقين، الَّذين يستحقُّون التَّقدير والتكريم.

وجاءَ يوسفُ إلَى الملك، ليعملَ معهُ، فاختارَ أنْ يكونَ أمينًا علَى خزائن الأرض، حتَّى يستطيع أنْ ينقذَ مصر عندَما تجيءُ سنوات الجدب والجفاف.

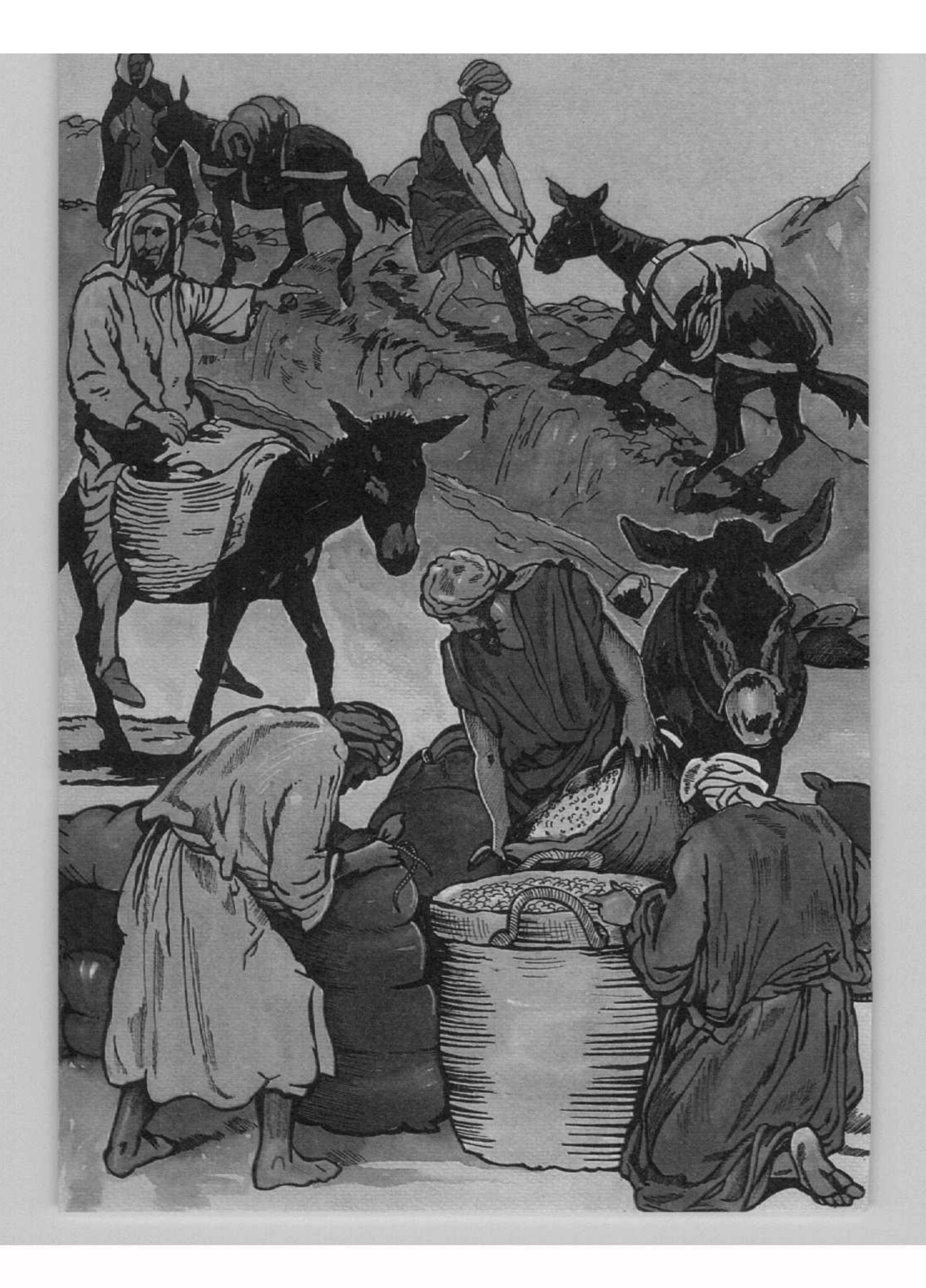
وولاَّه الملكُ رئاسة الوزراء، ووزارة الاقتصاد والتِّجارة فى آن واحد، ثُم زادهُ تكريمًا فخلعَ الخاتمَ من يده وجعلَهُ فى يَد يوسف، وألبسَهُ ثيابًا ملكيَّة، ووضعَ فى عنقه طوقًا ذهبيًا، وأركبهُ مركبته الثَّانية وقالَ لهُ:

لقدْ جعلتُكَ علَى كُلِّ أرض مصرَ، فأنتَ الخازنُ، وصاحبُ السُّلطان والقضاء، والرَّجلُ الأولُ فى مصر من بعدى. كمَا زوَّجهُ من زُليخا زوجة عزيز مصرَ الَّذى مَاتَ، فوجدَها عذراءَ لمَ يمسَّهَا زوجُهَا السَّابقُ، فولَدتْ ليوسفَ ولدَيْن همَا أفرائيمُ ومنشَّا.

وسُبحانَ الله العَظيم، إذَا اقتنعَ الإنسانُ ورضىَ بالحلاَل وامتنعَ عن الحرام خوفًا منَ الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ اللهَ يعطيه مَا عفَّ عنه ويجعلُهُ حلاَلاً لهُ ومباحًا، ويضاعفُ لهُ أضعافًا كثيرةً.

الإخوة في بلاط يوسف

جاءَت السَّنوَاتُ السَّبعُ الخصبةُ، وفيهَا أعدَّ يوسفُ العُدَّةَ، وأقامَ المخَازنَ والصَّوامعَ لتخزين الغلاَل والحُبوب وهىَ فى أغلفتهَا لكىْ لاَ تفسُدَ، وظلَّ علَى ذلكَ حتَّى وفَّرَ الشَّىءَ الكثيرَ وادَّخرَهُ، إلَى أنْ جاءَت سنوَاتُ الجدب السَّبع، فعمَّ القحطُ البلاَدَ، وكانَ يوسفُ قد ادَّخرَ الكثيرَ منَ الحبوب: الذَّرة والقمح والشَّعير، ففتحَ يوسفُ الخزَائنَ للنَّاس، وقدَّمَ للمحْتاج مَا يكفيه، حتَّى أنَّ مصرَ كَانت تمدُّ العالمَ بالطَّعامِ، وخصُوصًا أهْلَ الشَّام.



وعندما امْتدَّ القَحْطُ إلَى أرضِ الشَّامِ، وَأحسَّ النَّاسُ هُناكَ بالجُوعِ، وَعلموا أنَّ الطَّعَامَ بمصرَ وَفيرٌ، أَرسَلَ يَعقُوبُ أَولادَهُ، ومعهمُ الجِمَالُ والحَميرُ وَالأموالُ لشراءِ ما يَحتَاجُونَ إليْه، ودَخلُوا عَلَى يُوسفَ فعرَفهُمْ، وَلكنَّهُمْ لَمْ يَعرفُوهُ، لأنَّ زَمنَ فراقهِمْ لَهُ قَدْ طَالَ، ويُقَالُ أنهُ زادَ عَنْ أربعينَ سَنةً، ولَمْ يخطُرْ ببالهمْ أَنْ يكُونَ عَزيزُ مصرَ الَّذى يَدْخلُون عليه هُو ذَلكَ الطِّفلُ الصَّغيرُ الَّذى رَمَاهُ إخْوتُهُ فِى البئرِ مُنذُ عَشراتِ السِّنينَ.

لَقدْ أكسبَهُ تَاجُ الملْك مَهابةَ الملُوك، فَلمْ يعرفْهُ إخوتُهُ، وأعطَاهُمْ يُوسفُ ما يُريدُونَ منَ الطَّعامِ، وَطلبَ منهُمْ أَنْ يأْتُوا بأخٍ لَهمْ منْ أبيهمْ لَمْ يأتِ مَعهُمْ هذه المرَّةَ، وَإذَا جَاءَ مَعهمْ فى المرة التَّالية فَسوفَ يُعطيهمْ طعامًا أكثرَ، ويُوفِى لَهمُ الكيْلَ، ويرجعُهُمْ إلَى ديارِهمْ مُكرَّمينَ.

كَانَ ذلكَ الأخُ هُوَ بنيامينُ أَخَاهُ الصَّغيرَ، وعَرفَ يُوسفُ منهُمْ أنَّ أبَاهُمْ يعقوبَ لَمْ يَسمحْ لَهم باصْطحابه مَعهُمْ، ومُفارقَته إيَّاهُ، لأنَّهُ يَخْشَى أنْ يكونَ نَصيبُهُ منَ السُّوءِ مثلَ نَصيبِ يُوسفَ.

أغدَقَ يُوسُفُ عَلَى إخوته، وأعطَاهُمْ مَا يريدُونَ ثُمَّ أمرَ بوضْعِ ثَمنِ مَا اشْترَوْهُ فِى أوعيتهِمْ حتَّى يَضمنَ عَودتهُمْ إليْهِ؛ فَقدْ كانَت العَادةُ ألاَّ يَقبلَ المشْتَرِى رَدَّ ثمَنِ البضاعةِ لَهُ. وَعادَ إخْوةُ يُوسفَ إلَى أبيهِمْ يعقُوبَ عَليْه السَّلامَ، وأفصَحُوا عَنْ رَغبتهمْ فِى اصْطحَابِ بنيامينَ حتَّى يَزيدَ العزيزُ لهُمُ الكيْلَ، فَتذكَّرَ يَعقُوبُ ابنَهُ يوسُفَ، وعَادتْ إلَيْهِ لوعَةُ فِراقِه فَقالَ لأوْلاَده:

لاَ أستطيعُ أنْ آمنكُمْ عَلَى بنيَامينَ كَمَا أمنتكُمْ عَلَى يُوسفَ مِنْ قَبلُ. ويَكفِى حُزنِى وَلوعَتى عَلَى يُوسفَ حَتَّى الآنَ.

ولَما فَتحُوا أوْعيتَهمْ وَجدُوا فِيهَا أثمانَ البضَاعَةِ الَّتى اشْترَوْهَا، فَقويتْ عَزائمُهمْ عَلَى أنْ يُلحُّوا فى عَودة بنيَامينَ مَعهمْ. . فقَالُوا:

يَا أَبَانَا، مَا نَبْغِي، هَذِه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا، وَإِذَا جَاءَ أَخُونَا مَعَنَا زَادَنَا الملكُ فِى الكَيْلِ، وَأَعْطَانَا الكَثِيرَ مِنَ الطَّعَامِ وَالحُبُوبِ.

وَلأَنَّ القحطَ كَانَ شَدِيدًا، وَلاَ يعْلَمُ أَحَدٌ نهايةً لِهَذَا الجدبِ، بَدَأَ يعقوبُ يُفكِّرُ فِى ذَلِكَ الأَمْرِ، وَأخيرًا سَمحَ لَهمْ بَاصطحَابِ أَخِيهِمِ بِشرط أَنْ يُعطوهُ عَهْدًا وميثَاقًا بِألاَّ يُهملوهُ، وَأَنْ يحافظُوا عَليه، ويُعيدُوهُ إليهِ سَالمًا، إلاَّ أَنْ يُحاطَ بِهِمْ وَلاَ يتمكَّنُوا منْ ذَلكَ، عندئذ - بل وفِى كُلِّ آنَ سيكونُ الأَمرُ لله وَحدَهُ يَفعلُ ما يَشاءُ.

وَأعْطَى الأَبناءُ العهدَ والميثَاقَ لأبيهِمْ كَمَا أَرادَ، وَعندئذ نَصحَهُمْ بِألاَّ يَدْخلُوا من بابٍ وَاحدٍ، وَأمرَهُمْ أَنْ يدخلُوا من أبوَابٍ مُتفرِّقَةٍ، لأنَّهُ يَخافُ عَلَيهِمْ حسدَ الحَاسدينَ، وحَتَّى لاَ تلتفِتَ إليهِمُ الأَنظَارُ فَيحدُثُ لَهمْ شَرٌّ لاَ يتوقَّعونَهُ.

وَعادَ إِخْوَةُ يوسُفَ إِلَى مصرَ، فَلمَّا رآهُمْ، ورأى معَهم بنيَامينَ أَخاهُ الشَّقيقَ الصَّغيرَ، أَمرَ حَاشيتَهُ بضيافتِهِمْ، وَأخذَ يفكِّرُ فى طَرِيقَةٍ يَستبْقى بهَا أَخاهُ بنيامينَ معَهُ، دُونَ أَنْ يَشعُرُوا بذلكَ، وَهَدَاهُ تفكيرُهُ إِلَى أَنْ يأمرَ بتجهيزِ إخوتِهِ، فملأَ لهمْ أَوعيَتَهُمْ بمَا يَشاءُونَ منَ الحُبوبِ والطَّعامِ، وأَمرَ أَنْ تُوضَعَ أَموالُ كُلٍّ منهُمْ فى وعائهِ إلاَّ وعاءَ بنيَامينَ، فقدْ وضعَ فيهِ إناءَهُ الذَّهبىَّ الذى يَشربُ فيهِ، وأَفهمَ بنيَامينَ بتلكَ الحيلَةِ، حتَّى لاَ يفزعَ عندمَا يرَى النتيجَةَ الَّتى سيَصلُ إليهَا يوسُفُ.

وخرجَ إخوةُ يوسفَ وَهمْ مسرورُونَ بالكرمِ الَّذى يُلاقُونَهُ مِنْ عزيزِ مصرَ، وبعدَ أنْ سَارُوا قَليلاً سَمعُوا مناديًا يأمرُهمْ بالتَّوقُّفِ. ويتَّهمهمْ بالسَّرقَةِ، ويقولُ لهُمْ: لَقدْ فقَدْنَا إناءَ الملكِ وليْسَ هُناكَ مَنْ نَشكُّ فيهِ إلاَّ أَنْتُمْ، فَقفُوا لنفتِّشكُمْ أيُّهَا السَّارقُونَ.

نَفَى الإخوةُ هَذَا الاتِّهَامَ، وَأَعلنُوا أَنَّ ذلكَ لاَيجوزُ، فَقدْ جَاءُوا للشِّراءِ فَقطْ، وَلَمْ يكُونُوا مِنَ المفسدينَ.

سَأَلهمْ يُوسُفَ قَائلاً: مَا جزاءُ السَّارقِ فِى شَريعتِكُمْ، قَالُوا: جزاؤُهُ أَن يسجَنَ أَو يصيرَ عَبدًا للمسروقِ منْهُ.

فأمرَ يوسُفُ بتفتيشِ أوعيَتهِمْ فلَمْ يَجدْ فيهَا شيْئًا، ثُمَّ اتَّجه المفَتِّشُونَ إلَى وعاء بنيامين، فوجَدُوا فيه الإنـاءَ المسروقَ، فأخذُوه عبْدًا كمَا تَحكمُ الشَّـريعةُ، وأمَـرَ يُوسفُ إخوتَه بالـعَودَة إلَى أبيـهِم دُونَ أنْ يكُونَ معَـهُم بنيامين.

استعطفَ الإخْوةُ يُوسفَ، وَهمْ لاَ يعرفُونَهُ، وحاولُوا أنْ يُفهمُوهُ أنَّ وَالدَهُ مُرتبطٌ به أشَدَّ الارتبَاط، وأنَّهُ شَيخٌ كبيرٌ، وسيُصَابُ بشرٍّ كَبيرٍ إذَا لَمْ يَعُدْ مـعهُمْ أخُـوهُم الصَّغـير. وطلبُـوا منْهُ أنْ يأخُذَ واحِـدا منهُمْ بدلَهُ، فرفضَ يُوسُفُ ذَلكَ وقَالَ: معاذَ الله أنْ نأْخذَ إلاَّ مَنْ وجدْنَا متَاعَنا عندَهُ، فَارجعُوا إلَى أبيكُمْ وقُولُوا لَه: إن ابنَكَ سرَقَ، ونَالَ جزاءَ السَّارقين.

قَالُوا: إنْ يسرقْ فقدْ سَرقَ أخٌ لَهُ من قَبْلُ. يُريدُونَ بذلكَ أنْ يُشيرُوا إلَى الاتهام الَّذى كَانَتْ عمـةُ يُوسفَ قَد وجَّهتْهُ إليه من قَـبْلُ وهُوَ صَغيرٌ لكَيْ تَستبقـيَهُ عندهَا. وفَهِمَ يوسفُ مَا يَقصِدُونَ، فأضْـمرَ ذلكَ في نَفسِه ولم يُظْهرْ لهُم شَخصيَّتَه.

وعادَ إخـوةُ يُوسُفَ إلَى أبيهمْ، وأخبـرُوهُ بما حَدثَ لابنه بنيَـامينَ، وطلبُوا منْهُ أنْ يتأكَّـدَ منْ ذَلكَ بسؤَال القَافلة الَّتي جَاءُوا معَـهَا، فَهُمْ فِي هذه المرَّة صَادقُـونَ لَم يقدِّمُوا كَيْـدًا، ولَمْ يَبغُوا شَـرًّا، ولَكنَّ بينامين هُوَ الذي جَنَّى علَى نفسه بتلكَ الفَعلة المرْذولَة.

وبحسِّ الأبِ الملْهـوف، قَالَ يَعقـوبُ لأولاَده: لَقدْ دبرتُمْ لبنيَـامينَ كَيدًا كَـمَا دبرتمُوهُ ليوسفَ مِنْ قبلُ، فَصـبرٌ جميلٌ واللهُ المستـعَانُ علَى مَا تَصفُونَ.

وحزنَ يعقُـوبُ حُزنًا شَديدًا، وصَارَ يبْكي علَى فـرَاق ولَديْه، حتَّى ابيضَّـتْ عينَاهُ منَ الحـزْن، فصَارَ أعْـمَى لا يرَى مُحـبِّينَ ولاَ كَـارهين، وأحسَّ إحسَاسًا شديدًا بأنَّ يُوسفَ لاَ يـزالُ حيًّا، وأنَهُ في مصرَ، فطلَبَ منْ أولاَده أنْ يعُـودُوا إلَى مصـرَ، ويتحـسَّسُوا أمـرَ يوسُفَ وأخـيه، ولاَ ييْأسُوا منْ رَوحِ الله - يعنِي رَحمتَهُ - لأنهُ لاييأسُ مِنْ روْحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرونَ.

عَادَ الإخْوةُ إلَى مصرْ، وحكَوْا ليُوسُفَ مَا جرَى بينَهُمْ وبين أبيهِمْ، وَطلبُوا منهُ العفْو عَنْ أخيهِم حتَّى يستريحَ والدهُ. فذكَّرهم يوسف بالإسَاءَات التى نَالهَا منهم من قبلُ. وفى هَذه المرَّة كَانَ يكلِّمهم باللغَة العبرانيَّة الَّتى هى لُغتُهم الَّتى لاَ يَعرفُهَا سواهُمْ، فتأكَّدُوا أنَّهُ يوسفُ، وعرفُوا أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى قد آثرَهُ عليهِمْ جميعًا، فاعترفُوا بخطئهِمْ، وأعلنُوا ندمَهُمْ، وتوبتَهُم إلَى الله عزَّ وجلَّ، وَاعترفُوا بأنَّهم كَانُوا مُخطئِين.

وأعطاهُمْ يُوسفُ قَميصَهُ وقَالَ لَهمْ: اذهبُوا بقميصى هذا فألْقُوهْ عَلَى وَجْه أبِى يرجعْ بَصيرًا إنْ شَاءَ اللهُ. وَعُودوا إلَىَّ به وبكلِّ عائلة يَعقوبَ لتعيشُوا بجوارى فِى مصر مُعزَّزِينَ مُكَرَّمين.

كَانَ يعقوبُ فى أرْضه، وأولادُهُ قَادمُونَ منْ مصرَ، ولكنْ يَا لَلعجَب هَا هوذَا يُعلنُ لمنْ حَوله أنَّهُ يَشُمُّ رَائحَةَ يُوسفَ، بَعْدَ عشَرات السِّنين لاَيَنسَى رَائحَةَ الطِّفلِ المفقُود، والآنَ يَشمُّهَا وتَملأُ عَليه المكَانَ، ويعلنُ ذَلكَ حتَّى ولَوْ قَالَ القَائلونَ أنَّهُ مَجنُونٌ.

وَقالَ لهُ المحيطُونَ به: ألا تزَالُ تذكُرُ يوسُفَ وتَبكى عَليه حتَّى تموتَ، ارْحمْ نفسكَ من هَذه الذِّكريَات حتَّى لاَ تكونَ منَ الهَالكينَ.

ولكنْ لَم تمضِ لحظات حتَّى دخلَ عَليه أبناؤُهُ، وألْقوْا قَميص يُوسفَ عَلَى وجهه، فَارتدَّ بصيرًا بإذْن الله عزَّ وَجلَّ.

وفرِحَ يعقُوبُ فَرحًا شَديدًا بتلكَ الأخبار الطَّيبة الَّتى يَسمعُهَا عَنْ يُوسفَ وبنيامينَ، وهنَّأهُ كُلُّ مَنْ حولْهُ بسلامَةِ يُوسَفَ، وَشَدَّ يعقُوبُ الرِّحالَ إلَى مصرْ، وأخَذَ أهْلَهُ مَعهُ، وكَانُوا نَحوًا من سَبعينَ فَردًا، ولَمَّا دَخلَ عَلَى يوسُفَ آوى إليْه أبَويه، ثُمَّ أدْخل إخوَتَهُ الأحدَ عشَرَ، فقدَّمُوا إلِيه التَّحية والتَّعظيمَ، وَقَالَ يُوسفُ لأبيه:

يَا أبت هَذا تَأويلُ رُؤياىَ مِنْ قَبلُ قَدْ جعَلَهَا ربِّى حقًّا، إنَّ ربِّى لَطيفٌ بِى وبِكمْ وبسائرِ المؤْمنين.

وسجَدَ الجميعُ شَاكرينَ لله نَعمَـهُ عَليهم، وجمَعَهُ شَملَهُمْ بعدَ طُول فراق. فَلقدْ حَفظَ اللهُ يُوسفَ مِنْ كُلِّ المؤَامرات، وأنجاه مِنْ كُلِّ المكايد، وَالأهَوال الَّتِى تشَيبُ لَهَا الولدَانُ.

وعَاش الجميعُ فِى رِحابِ مصرَ.. وظَلَّ يُوسُفُ يَدْعُو إِلَى عبادَةِ الله وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، فَاطرِ السَّموَاتِ والأرض.

ويُقالُ أنَّهُ عَاشَ مائةً وعشرَ سِنين، وأنَّه عند موته أوصَى إِلَى أخِيه يَهوذَا منْ بعده.

وعَاش أَهْلُ يعقُوبَ، منْ أبناء يُوسفَ وإخوته فِى مصرَ، ولقَدْ سمُّوا بَنى إسرائيلَ، نسبةً إِلَى إسرَائيلَ الَّذى هُوَ يَعقُوبُ. وكَانَ اسْمُ يَعقوبَ إِسرائيلَ الله، أى نبىَّ الله المُختار.

وَهكَذَا تَنْتَهِى قِصةُ يُوسفَ عَليه السَّلامُ، قِصَّةُ الأَخلاَقِ الفَاضلَة الطَّاهِرة، والاستقامَةِ عَلَى المبادئ الحَقَّة، فَهِىَ قِصةُ التَّقوَى والصَّلاحِ والأَخلاَقِ النَّبِيلة الكريمَة، وكَذلكَ قِصةُ الصَّبرِ الَّذى هُو حَبسُ النَّفسِ عَلَى ما تكرَهُ، والصَّبرِ بكلِّ أنوَاعه، وعلَى كُلِّ المشْكلات.

إن قصَّة يُوسفَ هِىَ قِصَّةُ الصَّبرِ والصِّدْق وشُكر الله فِى كُلِّ وَقت، عَلى نعَمِه، ومَا أبلغ مَا قَالَهُ يُوسُفُ عَليه السَّلامُ، فِى خِتام قِصتِه الجميلَة. لَقدْ قَالَ: ﴿ **رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين** (١٠١) ﴾ [يوسف]

اللَّهمَّ توفَّنا مُسلمينَ، وألحِقْنا بالصَّالحينَ، وَلا تُخزنَا يَومَ يُبعثُونَ. يَومَ لاَ ينفعُ مَالٌ ولاَ بَنونَ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بقلبٍ سَليمٍ.